رحلة نحوية
مع أستاذى الكبير شوقى ضيف

د. مازن المبارك

دأب الدكتور شوقى ضيف فى هدوء العالم وتواضعه على إخراج كتبه الأدبية عن الفنّ ومذاهبه فى الشعر العربى، والفن ومذاهبه فى النثر العربى، وسلسلته الذهبية فى تاريخ الأدب العربى التى أحاطت بعصوره المختلفة، فكان لهذه السلسلة من الشهرة والانتشار، ما لم يكن لغيرها من كتب تاريخ الأدب العربى فى العصر الحديث.

ولم يشغله التأليف والبحث فى الأدب وتاريخه عن التأليف فى البلاغة وتاريخها ولا عن البحث والتحقيق فى النحو العربى، فقد حقق فى عام ١٩٤٧ كتاب «الردّ على النحاة» لابن مضاء القرطبى (ت ٥٩٢ هـ) وقدّم له بدراسة مسهبة بيّن فيها أغراضه، وساق أمثلة نحوية كثيرة طبّق فيها عمليًا ما دعا إليه ابن مضاء.

ولم يُخفِ الدكتور ضيف حماسته لأفكار ابن مضاء، ورغبته فى «تجديد النحو» الذى أرهق الناس، وكلّفهم من أمرهم عسرًا بالتزام فكرة العامل وإلحاحهم عليها، واتخاذها قاعدة أصيلة فى تعليل الأثر النحوى فى الكلام، وما جرّه ذلك كله من تعقيد على موضوعات النحو وتصنيفها.

وقد تتلمذت على الدكتور شوقى ضيف، حين درست كتابه هذا، وألقيت عنه محاضرة على طلاب السنة الثالثة من قسم اللغة العربية بجامعة دمشق - وكنت واحدًا منهم - بتكليف من أستاذى سعيد الأفغانى.

وأوفدت إلى مصر لمتابعة الدراسات العليا، وكان الدكتور ضيف واحدًا من الأساتذة المحاضرين على طلاب الدراسات العليا، بجامعة القاهرة، ثم وضعت تحت إشرافه للتحضير لدرجة الماجستير، فعملت معه سنوات، أخرجت فيها كتاب «الإيضاح فى علل النحو»

للزجّاجي (- ٣٣٧ هـ) مع دراسة عن الكتاب وصاحبه، وما يتصل بالعلة النحوية وتطوّرها[١]. وتفضل أستاذى الدكتور ضيف، فكتب مقدّمة الإيضاح الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٥٩، وعاد فيها مرة أخرى إلى نقد مسالك النحويين فى التعليل، ورأى جمهور العلل ضربًا من الفلسفة غير العملية، وليس وراءها أىّ طائل نحوىّ، ولكنه على إيمانه بأن النحو ينبغى أن ييسر على الناشئة، وأن تخرج منه العلل المعقّدة، كان يرى أن الواجب على المتخصصين أن يعنوا بدراسة النحو فى صورته القديمة ويحيوا آثاره، ليتبيّنوا تطوّره وما شفع به هذا التطور من جهود عقلية خصبة، وليستطيعوا الاضطلاع بما يريدون من تيسير الحو على علم وبصيرة.

واستمرت رحلتى مع أستاذى الدكتور ضيف حين أشرف علىّ وأنا أعدّ رسالتى لنيل درجة الدكتوراه عن الرمانى النحوى فى ضوء شرحه لكتااسيبويه[٢].

ولقد أفدت فى تلك السنوات المباركة من أدب الدكتور ضيف وخلقه، وعلمه أيّما إفادة، إذ كنت كثير التردد عليه، شديد الصلة به، السه فى بيته، وأرافقه فى الطريق، وأحضر مناقشاته لزملائى الكثيرين الذين كانوا يترددون عليه لعرض أبحاثهم ورسائلهم، وكان يشركنى فى الحديث والمناقشة، ويضفى علىّ من رعايته وحبّه مالا أنساه.

وإن من حقّه علىّ اليوم أن أذكر ما زادنى حبًا له وإعجابًا بخلقه، جئته مرة على استحياءٍ مستأذنًا أن يسمح لى بزيارة بعض أعلام النحو واللغة فى مصر... وكم كنت خائفًا أن يثور، أو أن يفسّر استئذانى على غير ما أردت، فإذا هو يبتسم ويقول: يا مازن اذهب إلى من شئت، وبلّغه تحيتى، وقل له: شوقى أرسلنى إليك لأفيد من علمك، وإن شئت أعطيتك بعض بطاقاتى لتقدمها إلى من تريد منهم.

وبذلك فتح لى أبوابًا، لم أكن لأصل إليها، فكانت لى جلسات مع ثلاثة من أعلام النحو واللغة رحمهم الله، وهم الأستاذ إبراهيم مصطفى صاحب «إحياء النحو» والأستاذ الشيخ محمد على النجار عضو مجمع اللغة العربية، وشقيقه الدكتور عبد الحليم النجار الذى كان يستقبلنى فى جلسة أسبوعية، لم تنقطع إلا يوم غادرت القاهرة. وكنت أعود ألى مجلس أستاذى الدكتور ضيف وأناقشه فيما سمعت من أولئك العلماء، فيصحح لى الفهم بكثير من السعادة والسرور. وعدت إلى دمشق عام ١٩٦٠، وانقطعت الأسباب المادية بينى وبين أستاذى، وبقيت أسباب روحية تذكرنى به وتشدنى إليه. وعدت إليه فى كتابه عن «المدارس النحوية» الذى صدر عام

---

(١) أصدرت ذلك فى ثلاثة كتب، أحدها: الإيضاح فى علل النحو، وثانيها: الزجاجى حياته وآثاره ومذهبه، وثالثها: النحو العربى (بحث فى العلة النحوية وتطورها).

(٢) صدرت طبعته الأولى عن جامعة دمشق عام ١٩٦٠.

١٩٦٨ ثم عدت إليه ثانية فى كتابه «تجديد النحو»، الذى صدر عام ١٩٨٢ أما «المدارس النحوية» فبحث جامع فى المذاهب النحوية يذكّرنا بدراسات الدكتور ضيف فى تاريخ الأدب، وما تتصف به من شمول فى التأريخ، وهدوء فى العرض، ووضوح فى الفكرة واستقلال فى الرأى.

يؤرخ الدكتور ضيف فى كتابه مسيرة النحو منذ بداياته الأولى إلى قيام مدارسه... يتناولها واحدة بعد الأخرى، ناشرًا تاريخها مترجمًا لأبرز أعلامها، منتهيًا فى القرن التاسع للهجرة بالجلاسيوطى (ت - ٩١١هـ).

ولعل أبرز ما يتصف به كتاب «المدارس النحوية» - على كثرة فوائده - أنه كتاب جامع يحيط من تاريخ النحو، ونشأة مدارسه بما لا يحيط به كتاب آخر من كتب تاريخ النحو ومدارسه، ويعرّف كثيرًا من أئمة النحاة، وأنه هادىء الأسلوب، فلا تبجح ولا ادّعاء، ولا ثورة ولا عنف، وأن آراء صاحبه واضحة صريحة وأبرز تلك الآراء:

١ - يرجع السبب فى وضع النحو إلى عوامل دينية وقومية عربية واجتماعية وعقلية، فأما الدينية ففى الحرص الشديد على أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحًا سليمًا، وأما القومية العربية ففى اعتزاز العرب بلغتهم وخشيتهم عليها من الفساد، وأما الاجتماعية ففى حاجة الشعوب المستعربة إلى من يرسم لها أوضاع العربية فى إعرابها، وتصرفها حتى تتمثلها تمثلاً سليمًا مستقيمًا وتتقن النطق بها نطقًا على الوجه الصحيح، وأما العقلية ففى رقىّ العقل العربى ونموّ طاقته الذهنية نموًّا أعدّه للنهوض برصد الظواهر اللغوية، وتسجيل الرسوم النحوية تسجيلاً تطّرد فيه القواعد، وتنتظم الأقيسة انتظامًا هيّأ لنشوء النحو ووضع قوانينه الجامعة.

٢ - إن مبادىء النحو وأولياته تعود إلى جيل ابن أبى إسحاق الحضرمى (ت - ١١٧هـ) لا إلى جيل أبى الأسود الدؤلى (ت٦٩هـ).

٣ - إن النحو وأصوله وقواعده الأساسية تكوّن نهائيًا على يد سيبويه (ت ١٨٠ هـ)، وأستاذه الخليل (ت ١٧٠ هـ)، وكأنهما لم يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق بحسب المدارس وبحسب النحاة.

٤ - إن النشاط النحوى فى الكوفة لم يبدأ على يد الرؤاسى (- ١٨٧ هـ).

٥ - معاذ الهراء (ت١٨٧هـ) لم يضع علم الصرف.

٦ - المازنى (ت٢٤٩هـ) هو الذى فصل علم التصريف عن النحو، وصنّف فيه مصنّفات قيمة، نظم فيها قواعده ومسائله، وجعله علمًا مستقلاً بأبنيته، وأقيسته وتمارينه، وهو الذى فتح الباب فيه على التمارين غير العملية.

٧ - الخليل وسيبويه فتحا باب التمارين غير العملية فى النحو.

٨ - إن كتاب سيبويه سجلٌ لأصول النحو وقواعده ولظواهر التعبير العربى التى أتقنها سيبويه فقهًا وعلمًا وتحليلاً. وجمهور ما يصوّره سيبويه فى كتابه من أصول النحو والتصريف وقواعدهما إنما هو من صنع تاذه الخليل، ولا ننكر ما لسيبويه فى العلمين من إكمال وتتميم.

وكتاب سيبويه لا يعلّم العربية وقواعدها فحسب، بل يعلّم أيضًا أساليبها ودقائقها التعبيرية.

وفيه اتساع فى التعليل وكثرة فى القياس لا تعلّم النحو والصرف فحسب بل تعلّم معهما العقل.

٩ - إن الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) هو المؤسس الحقيقى لمدرسة البصرة خاصة ولعلم النحو عامة، وإليه تعود نظرية العامل وما يتصل بها من سماع وتعليل وقياس، وهو ذو عقل ثرى أوتى دقة فى الاستنباط تذهل كلّ من يقف على وضعه لعروض الشعر، ورفعه لصرح النحو، ورسمه المنهج الذى أُلّف عليه «معجم العين»، واختراعه لعلامات الضبط (الفتحة والضمة والكسرة) التى لا نزال نستعملها، وفضله فى وضع قوانين الإعلال والقلب، وامتيازه بحسّ لغوى دقيق مكّنه من فقه لغة العرب وأسرارها ودقائق عباراتها.

١٠ - إن المدرسة البصرية هى التى وضعت أصول النحو العربى وقواعده، وأرست بنيانه الذى مازال عامرًا إلى اليوم، وذلك بفضل ما يتصف به العقل البصرى من دقّة وعمق واستعداد، لتسجيل الظواهر النحوية ووضع قواعدها، مما لم يتح مثله للعقل الكوفى.

١١ - المبرد (ت ٢٨٥هـ) آخر النابهين من نحاة المدرسة البصرية، والسيرافى (ت ٣٦٨هـ) خاتمة نحاتها المُهمِّين، بل به تنتهى مدرسة البصرة، وهو نحوى يتوسّع فى التعليل توسعًا أسعفه فيه عقله الجدلى الخصب.

١٢ - إن أبا عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ) راوية ثقة كثير السماع، وهو أقرب إلى أن يكون من اللغويين والقرّاء منه إلى أن يكون من النحويين.

١٣ - أبو الحسن الأخفش (ت ٢١٥هـ) أكبر أئمة النحو البصرى بعد سيبويه، وهو الذى فتح باب الخلاف عليه، كما فتح الباب للّغات الشاذّة والقراءات الشاذّة، يدافع عنها ويحتجّ لها. وهو الملهم الحقيقى للكسائى (ت ١٨٩ هـ) وغيره من أعلام الكوفيين، وكانت بعض آرائه أسسًا بنيت عليها فيما بعد مدرسة الكوفة، ثم المدارس المتأخرة المختلفة، فقد كان حادّ الذكاء ثاقب

الذهن، فخالف أستاذه سيبويه فى كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون، ومضوْا يتسعون فيه، فهو بحقّ أستاذ المدرسة الكوفية.

١٤ - إمام الكوفيين بحق هو الفراء (- ٢٠٧ هـ)، وهو أول من توسع فى تخطئة بعض العرب، وعنف فى إنكار القراءت الشاذة. وهو الذى أعطى النحو الكوفى صيغته النهائية، ولولاه لما استقام نحو الكوفة، ولا وضع منهاجه، ولا صحّت حدوده، ولا فصّلت مصطلحاته. والفراء هو الملهم الحقيقلمن جاء بعده من البصريين الحمل على بعض القراءات الشاذة، وهو الإمام الحقيقى لمدرسة الكوفة، وإن كان الكسائى قد سبقه فلم تكن له دقة عقله وعمق نظرته وحدة ذهنه.

١٥ - الكسائى والفراء ستحدثا المدرسة الكوفية المتميزة باتساع الرواية، وبسط القياس وقبضسه،ووضع بعض المصطلحات. وبهما يبدأ النحو الكوفى، لأنهما هما اللذان رسما صورته، ووضعا أسسه وأصوله، وأمدّاه بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التى استقل بها عن النحو البصرى.

١٦ - ليس صحيحًا ما زعمه «ڤايل» من أن نحو الكوفة لم تكن له مدرسة خاصة.

١٧ - لم يكن دافع الفراء وأمثاله ممّن يردّون بعض القراءات - وهى لا تعدو حروفًا معدودة - الطعن والتنقّص، إنما كان دافعهم الرغبة الشديدة فى التحرّى والتثبّت.

١٨ - لم يكن ثعلب (- ٢٩١ هـ) نحويًا يستنبط الآراء الجديدة، وإنما كان شارحًا لآراء شيخى الكوفة الكسائى، والفراء.

١٩ - ابن آجرّوم الصنهاجى (- ٧٢٣ هـ) هو آخر من استظهر آراء المدرسة الكوفية فى مصنفاتهم.

٢٠ - تتميز المدرسة الكوفية بثلاثة طوابع كبيرة:

(أ) طابع الاتساع فى الرواية، بحيث تفتح جميع المسالك للأشعار واللغات الشاذة.

(ب) طابع الاتساع فى القياس، بحيث يقاس على الشاذ والنادر دون تقيّد بندرته وشذوذه.

(جـ) طابع المخالفة فى بعض المصطلحات النحوية، وما يتصل بها من العوامل.

وهى مدرسة لا تباين المدرسة البصرية فى الأركان العامة للنحو، التى ظلت إلى اليوم راسخة فى النحو العربى، غير أنها مع اعتمادها لتلك الأركان، استطاعت أن تشق لنفسها مذهبًا جديدًا فى النحو، له طوابعه، وله أسسه ومبادئه.

٢١ - المدرسة البغدادية ذات نهج قويم يقوم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية

والكوفية، ويفتح الباب للاجتهاد والخلوص إلى الآراء المبتكرة.

والمدرسة البغدادية تضم جيلين من النحاة: الجيل الأول غلبت عليه النزعة الكوفية، وهو الذى كان ابن جنى (- ٣٩٢هـ) يعبّر عن نحاته باسم «البغداديين»، ويمثّل هذا الجيل ابن كيسان (- ٢٩٩هـ) وابن شقير (- ٣١٧هـ) وابن الخياط (- ٣٢٠هـ).

وأما الجيل الثانى فغلبت عليه النزعة البصرية، ويمثله الزجّاجى (- ٣٣٧هـ) والفارسى (- ٣٧٧هـ) وابن جنى (- ٣٩٢هـ).

٢٢ - الفارسى وابن جنى بغداديان ينزعان إلى البصرة، وهذه النزعة هى التى سادت منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى، وقد كانا من أهم الأسباب فى شيوعها، إذ كانا ينتخبان من المذهبين البصرى والكوفى مع نزوع شديد إلى البصريين، ومع الفسحة وفتح الأبواب على مصاريعها للاجتهاد، ومخالفة البصريين والكوفيين بقدر ما يؤديها النظر وتسعفها الحجة، وهما أبعد النحاة أثرًا فيمن تلاهما، فقلّما ظهر بعدهما نحوى لم ينضو تحت لوائهما مستظهرًا لمنهجها، وما أخذا به نفسيهما من الاختيار الحرّ من آراء المدرستين البصرية والكوفية، وكذلك من آرائهما مع محاولة الاجتهاد والنفوذ إلى استنباط آراء جديدة. وإليهما يرجع نسب النحو البغدادى الذى تسلسل فيمن ظهر بعدهما كالزمخشرى (- ٥٣٨هـ)، وأبى البركات الأنبارى (- ٥٧٧هـ) وأبى البقاء العكبرى (- ٦١٦هـ)، وابن يعيش الحلبى (- ٦٤٣هـ) والرضى الاستراباذى (- نحو ٦٨٦هـ).

٢٣ - ابن جنى هو مؤصّل علم التصريف وواضح قوانينه الكلية، وهو الذى عمل على تثبيت قانونى الاشتقاق الأكبر والتضمين.

٢٤ - إن جودى بن عثمان (- ١٩٨هـ)، هو أول نحوى أندلس بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهو أول من أدخل إلى موطنه كتب النحو الكوفى.

٢٥ - لقد اهتمت المدرسة الأندلسية أول أمرها بالنحو الكوفى اقتداء بنحويّها الأول جودى بن عثمان، ثم التفتت إلى النحو البصرى فى أواخر القرن الثالث للهجرة، ولا نصل إلى ابن سيده (- ٤٥٨هـ) حتى نرى الأندلسيين منغمسين فى النحو البغدادى انغماسهم فى النحو الكوفى والبصرى.

٢٦ - أخذت المدرسة الأندلسية منذ القرن الخامس آراء المشارقة من نحاة البصرة والكوفة وبغداد، مع اجتهاد واسع فى الفروع والاستنباطات وكثرة فى التعليلات والاحتجاجات، وكان أئمة تلك المدرسة يأتون فى كل جيل بما لم يسبقوا إليه من الخواطر والآراء.

٢٧ - إن ابن مضاء (- ٥٩٢ هـ)، أراد أن يصوغ النحو صياغة جديدة خالية من نظرية العوامل والمعمولات المذكورة، والمقدّرة، ومن العلل والأقيسة المعقدّة.

٢٨ - إن ابن مالك (- ٦٧٢ هـ)، هو أكبر أئمة النحو الأندلسى على الإطلاق، ثم خلفه كثيرون كان أكبرَهم أبو حيان (- ٧٤٥ هـ). وقد كان ابن مالك أمّة فى الاطلاع على كتب النحاة وآرائهم، وعلى اللغة والشواهد، وكان أمة فى القراءات وروايةة لحديث. وهو أول من استكثر من رواية الحديث فى النحو، وآراؤه مختارة من البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين ومما تفرّد به. وكان رائده السماع وقد تجنب القياس على الشاذ.

٢٩ - عبد الرحمن بن هرمز (- ١١٧ هـ) من أقدم علماء العربية بمصر. وأما أول نحوى مصرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، فهو ولاد بن محمد التميمى (- ٢٦٣ هـ).

٣٠ - إن المدرسة المصرية كانت فى أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية، ثم أخذت منذ القرن الرابع الهجرى تمزج بين آراء البصريين والكوفيين ثم البغداديين، وقد بدأ ازدهارها فى العصر الأيوبى، وتكامل فى العصر المملوكى على يد ابن هشام (- ٧٦١ هـ).

٣١ - المدرسة المصرية مزجت المذهبين البصرى والكوفى منذ عصر مبكر.

٣٢ - إن ابن هشام المذكور، صاحب المغنى، امتاز بملكات عقلية نادرة، وإحاطة بآراء النحاة السالفين على اختلاف مدارسهم وأعصارهم وبلدانهم، وقد أوتى قدرة بارعة على المناقشة مع طرافة فى التحليل والاستنباط وجمال فى العرض والأداء.

٣٣ - السيوطى (- ٩١١) كان يختار لنفسه من مذاهب النحويين ما يتجه عنده تعليله، وذلك هو نهج المدرسة المصرية التى كانت تتخير من الآراء النحوية ما تستقيم حججه وبراهينه.

وينتهى كتاب «المدارس النحوية» بذكر السيوطى بعد أن يؤرخ تسعة قرون من تاريخ النحو العربى، ومدارسه، وأعلامه، وبعد أن يستوفى الدكتور شوقى فيه ذكر آرائه المتصلة بأبرز قضايا تاريخ النحو.

فإذا تجاوزنا «المدارس» إلى «تجديد النحو»، فقد تجاوزنا تاريخ النحو إلى النحو نفسه، وطالعتنا الثمرة العملية التى انتهى إليها الدكتور شوقى بعد نصف قرن من الزمن صاحب فيه النحو والنحويين، دراسة وبحثًا وإشرافًا على الرسائل الجامعية ومناقشة لها، وقد تتبع محاولات التيسير قديمها وحديثها، حتى انتهى فى كتابه إلى اقتراح تصنيف جديد للنحو ينسق فيه أبوابه تنسيقًا جديدًا مستفيدًا فى تطبيقه ممّن سبقه من القدماء، والمحدثين، ومضيفًا إليه ما رآه لازمًا لتذليل النحو وتبسيطه، وتمثّل قواعده واستكمال نواقصه، أملًا فى أن يكون الكتاب نهجًا

جديدًا فى ميدان النحو التعليمى، والتأليف فيه. وهو كتاب جادّ جدير ببحث مستقل ودراسة مستفيضة.

على أنه أيًا كان الرأى فى محاولة الدكتور شوقى تجديد النحو، وسواء أوافقناه على آرائه التى عرضها فيه كلها أو بعضها أم لم نوافقه، فالذى لا شك فيه أن «تجديد النحو» عنده ثمرة اجتهاد طويل وعمل دؤوب واطلاع واسع، وإن طابعه فيه الصدق فى العمل والإخلاص فى النيّة والعزم فى إنفاذ الرغبة. وقد كان الدكتور شوقى ضيف فى دراساته النحوية كما كان فى مؤلفاته كافّة باحثًا نقّادًا، لا يكتفى بالجمع والعرض أو بالسّرد والوصف، ولكنه يستوعب القديم ليتخذ منه تكأة إلى إبداع الجديد. إن «الجديد» عند الدكتور شوقى ضيف ليس لقيطًا ولا منبتًا، ولكنه وليد جديد شرعى موصول النسب، يجمع الطرافة والتلادة معا.

وبعـــد:

فما عرفت أستاذى الدكتور شوقى ضيف محبًا للمديح، ولكننى عرفته محبًا للوفاء، وإن من بعض الوفاء أن أقول له اليوم: هنيئًا لك هذه الثروة الفكرية الضخمة، التى أودعتها عشرات الكتب التى تفخر بها المكتبة العربية، وغرستها فى عقول أجيال من الطلاب الذين تخرجوا بك، وانتشروا فى أرجاء الوطن العربى وجامعاته، يجيون ما قبسوه منك من خلق وعلم.

وجزاك الله خيرًا كفاء ما ذاع بك من علم، وما عمّ بك من نفع.

ا. د. مازن المبارك
أستاذ النحو العربى
كلية الآداب - جامعة دمشق